بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (٨)

من قوله تعالى"ويوم نسير الجبال" الآية ٤٧ إلى قوله تعالى"وما كنت متخذ المضلين عضدا" الآية٥١

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى:

{وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، [سورة الكهف: (٤٧ - ٤٩)].

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا} [الطور:٩-١٠] أي: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} [النمل:٨٨]، وقال تعالى: {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}[القارعة:٥]، وقال: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا} [طه:١٠٥-١٠٧] يذكر تعالى أنه تذهب الجبال، وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض، {قَاعًا صَفْصَفًا} أي: سطحاً مستوياً لا عوج فيه، {وَلا أَمْتًا} أي: لا وادي ولا جَبَل؛ ولهذا قال تعالى: {وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً} أي: بادية ظاهرة ليس فيها مَعْلَم لأحد ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية.

قال مجاهد وقتادة: {وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً} لا خمر فيها ولا غَيابة، قال قتادة: لا بناءَ ولا شجر.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف: (٤٧)] يحتمل أن يكون قوله: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ} متعلقاً بما قبله: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً* وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف: ٤٦-٤٧)] يعني: خير عند الله في الآخرة في اليوم الذي تُسير فيه الجبال، ولعله أحسن من هذا أن يقال بأن ذلك متعلق بمقدر، والتقدير: واذكر يوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة، وهنا أورد المصنف -رحمه الله- قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} [سورة النمل: (٨٨)] يعني: في الآخرة إذا قامت القيامة، وليس المقصود بذلك في الدنيا كما يذكره بعض من يتكلم في الإعجاز ويستدل به على دوران الأرض، وأن

المقصود بذلك دوران الأرض وما عليها يدور ويتحرك بحركتها، فالجبال تدور بدوران الأرض، ليس هذا هو المراد، وإنما الآيات يفسر بعضها بعضاً، فذلك حينما تقوم القيامة.

وقوله: {وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} يقول: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} ترى الأرض بارزة أي: بادية ظاهرة، ليس فيها معلم لأحد، ولا بناء ولا عمارات ولا أشجار ولا جبال، يقول: بل الخلق كلهم ضاحون لربهم، أي: بادون ظاهرون، وكما في الحديث: ((**انظروا إلى عبادي شعثا غبرا ضاحين جاءوا من كل فج عميق يرجون رحمتي ولم يروا عذابي**))[1] بمعنى: أنه باد للشمس لا يستتر بشيء.

قال مجاهد وقتادة: {وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف: (٤٧)] لا خمر فيه ولا غيابة، فلا يوجد ماء يسترهم، فالخمر قيل له خمر؛ لأنه يخامر العقل أي: يسترها، والخمار خمار المرأة لأنه يسترها ويغطيها، فلا يوجد ما يسترهم أو يكنّهم.

والغيابة كل شيء سترك وغطاك من سحاب أو غير ذلك يقال له غيابة، ومنه غيابة الجب؛ لأن من كان بداخله وفي قعره، فإن العيون لا تراه يكون مستتراً بهذا البئر، وهكذا في الحديث: ((كأنهما غيايتان))[2]، فما يستر الإنسان من سحاب ونحو ذلك يقال له غياية وغيابة، قال قتادة: لا بناء ولا شجر.

وأما من قال في معنى قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} أنها تُخرج ما فيها من الأجداث والكنوز فلا تدل عليه هذه الآية، وإنما تدل عليه آيات أخرى، كقوله: {وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ} [سورة الانشقاق: (٤)]، وقوله: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [سورة الزلزلة:(١-٢)] وإذا أخرجت أثقالها أخرجت ما فيها من الموتى، وأخرجت ما فيها من الكنوز.

وقوله: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} أي: وجمعناهم الأولين منهم والآخرين فلم نترك منهم أحداً، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: {قُلْ إِنَّ الأوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}[الواقعة:٤٩-٥٠]، وقال: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ}[هود:١٠٣]، وقوله: {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا} يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}[النبأ:٣٨]، ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً، كما قال: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}[الفجر:٢٢].

وقوله: {لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} هذا تقريع للمنكرين للمعاد وتوبيخ لهم على رءوس الأشهاد؛ ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم: {بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا} أي: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ولا أن هذا كائن.

{لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [سورة الكهف: (٤٨)] فسره ابن جرير -رحمه الله-: أي: أحياء بعد أن أماتكم الله -عز وجل- أحياكم ثانية.

---

[1] - رواه ابن حبان في صحيحه (١٦٤/٩)، برقم: (٣٨٥٣)، وابن خزيمة (٢٦٣/٤)، برقم: (٢٨٤٠)، وأبو يعلى في مسنده (٦٩/٤)، برقم: (٢٠٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٧/٥)، برقم: (٣٧٧٤).

٢ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٥٥٣/١)، برقم: (٨٠٤).

وأشمل من هذا المعنى أن يقال: {لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} يعني: على هيئتكم حينما خلقكم الله -عز وجل- أول ما خلقكم حفاة عراة غرلاً لا خدم ولا حشم ولا مال ولا ولد، وإنما يحشر الإنسان بعيداً عن أهله وملكه، ويحشر منفرداً ويتخلى عن ذلك كله، وقد جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: قال: قام فينا النبي -صلى الله عليه وسلم- يخطب فقال: ((إنكم تحشرون حفاة عراة غرلا {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [سورة الأنبياء: (١٠٤)]))[٣]، وهذا القول ينتظم مع ما ذكره ابن جرير -رحمه الله- إذا جاءوا حفاة عراة غرلاً فإنهم يأتون أحياء؛ لأن الله -عز وجل- يحييهم ثانية ويحشرهم على هذه الهيئة.

ما تناقص من أعضائهم وأجزائهم وأبعاضهم ونحو ذلك يرجع إليهم، وما وجد معهم من متاع وزيادة في هذه الحياة الدنيا فإن ذلك جميعاً يضمحل ويتلاشى، {كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} كما خرج من بطن أمه لا مال ولا لباس ولا غير ذلك.

وقوله: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} [سورة الكهف(٤٩)] **أي: كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير، {فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ} أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا} أي: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا، {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا} أي: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر، {إِلا أَحْصَاهَا} أي: ضبطها وحفظها.**

قوله: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} يحتمل أن يكون جنس الكتاب الذي تكتب فيه الأعمال، أعمال العباد والذنوب والطاعات وسائر الأعمال التي يعملونها، ويحتمل أن يكون المراد كتاب كل إنسان، فكل إنسان يعطى الكتاب الذي يخصه قد كتبت فيه أعماله الصغار والكبار، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} [سورة المجادلة: (٦)]، فآخذٌ كتابه بيمينه وآخذٌ كتابه بشماله وآخذٌ كتابه من وراء ظهره، كل بحسب حاله وعمله، {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [سورة الكهف(٤٩)] هذه قرينة تدل على أن المراد بالكتاب هنا كتاب الأعمال الذي يخص كل واحد؛ لأنه حينما يطلع عليه ويرى فيه هذه الأمور الدقاق الصغار والكبار، فكل إنسان يجد أعماله حاضرة حينما يطلع على كتابه الذي دونت فيه سائر الأعمال، حتى قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: إن الملَك يكتب كل شيء، حتى أكلتُ وشربتُ وذهبت وجئت، ثم بعد ذلك يُمحى ما لا يترتب عليه الثواب والعقاب، الله يقول: {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق: (١٨)]، وهذا للعموم، وبعضهم يقول: هذا من العام المراد به الخصوص، {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق: (١٨)] يعني: مما يتصل به الثواب والعقاب.

وقوله: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا} أي: من خير وشر، كما قال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا..}[آل عمران:٣٠] الآية، وقال تعالى: {يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ}[القيامة:١٣]، وقال تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}[الطارق:٩] أي: تظهر المخبآت والضمائر.

---

[٣] - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر (٢٣٩١/٥)، برقم: (٦١٦١)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢١٩٤/٤)، برقم: (٢٨٦٠).

روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لكل غادر لواء يومَ القيامة يعرف به))[٤]، أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظ: ((يُرْفَع لكل غادر لواء يومَ القيامة عند استه بقدر غَدْرته، يقال: هذه غَدْرَة فلان بن فلان))[٥].

وقوله: {وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويُخلَّد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا}[النساء:٤٠]، وقال: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا}[الأنبياء:٤٧] إلى قوله: {حَاسِبِينَ} [الأنبياء:٤٧] والآيات في هذا كثيرة.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رَحْلي، فسرت عليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يحشُر الله -عز وجل- الناس يوم القيامة -أو قال: العبادَ- عُرَاةَ غُرْلاً بُهْماً، قلت: وما بُهْماً ؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه مَن بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقصه منه حتى اللطمة، قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله -عز وجل- حفاة عُراة غُرْلاً بُهْماً ؟ قال: بالحسنات والسيئات))[٦].

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الحيل، باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت فقضي بقيمة الجارية الميتة ثم وجدها صاحبها فهي له ويرد القيمة ولا تكون القيمة ثمنا(٢٥٥٥/٦)، برقم:(٦٥٦٥)، ورواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر(١٣٦١/٣)، برقم: (١٧٣٧).

٥ - جاء عند البخاري، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم (٢٢٨٥/٥)، برقم: (٥٨٢٤) بلفظ: (إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان بن فلان)، وجاء عند مسلم، كتاب الجهاد والسير باب تحريم الغدر (١٣٥٩/٣)، برقم: (١٧٣٥)، بلفظ: (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فقيل هذه غدرة فلان بن فلان). ولهما من حديث ابن عمر.

وجاء عند مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، (١٣٦١/٣)، برقم: (١٧٣٨) من حديث أبي سعيد -رضي الله عنه-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة).

٦ - رواه الإمام أحمد (٤٣١/٢٥)، (١٦٠٤٢)، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

وعن شعبة عن العوام بن مُزَاحم عن أبي عثمان عن عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الجَمَّاء لتقتص من القرناء يوم القيامة))[٧]، رواه عبد الله بن الإمام أحمد وله شواهد من وجوه أُخر، وقد ذكرناها عند قوله: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} [الأنبياء:٤٧]، وعند قوله تعالى: {إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}[الأنعام:٣٨].

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً}، يقول تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه وهو الذي أنشأه وابتداه وبألطاف رزقه غذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ} أي: لجميع الملائكة، كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة.

{اسْجُدُوا لآدَمَ} أي: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [الحجر:٢٨ - ٢٩]، وقوله: {فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ} أي: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((خُلقت الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم))[٨]، فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد توَسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة.

ونبه تعالى هاهنا على أنه {مِنَ الْجِنِّ} أي: إنه خُلِق من نار، كما قال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}[الأعراف:١٢].

قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم -عليه السلام- أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ} [سورة الكهف: (٥٠)]

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "أي: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور".

يشير إلى أن العلة من عدم سجود إبليس لآدم أن أصله قد خانه، فأصله كان من الجن، فحمله أصله على عدم السجود، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، فهم مطيعون لله -عز وجل-، ووجه ذلك: أن الوصف الذي يذكر مع الحكم يدل على أنه هو العلة فيه، وهذا الذي يسمى بدلالة الإيماء والتنبيه، أن يقرن الحكم بوصف، لو لم يكن علة له لكان ذلك معيباً عند العقلاء أو عند السامعين، كما في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ

---

٧ - مسند أحمد (٥٤٢/١)، برقم: (٥٢٠)، قال محققو المسند: حسن لغيره، وإسناده ضعيف.

٨ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة(٢٢٩٤/٤)، برقم: (٢٩٩٦).

اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا [سورة الكهف: (٥٠)] فعلة السجود هو أمر الله -عز وجل- ومنه قولك سها فسجد، فعلة السجود السهو، وغفل فعصا فسبب المعصية الغفلة.

قوله: **{كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ}** [سورة الكهف: (٥٠)] فسق أي: فخرج، والفسق هو الخروج عن الطاعة وأصله مطلق الخروج في كلام العرب كما يقال: فسقت الفأرة من جحرها، يعني: خرجت للإفساد، والفاء هنا تفيد التعليل، فعلة خروجه عن أمر الله -عز وجل- أنه كان من الجن، وهذا توجيه لكلام ابن كثير -رحمه الله.

ولا شك أن الكبْر كان سببا لعدم سجوده، وقد أخبر الله عنه أنه قال: **{أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}** [سورة ص: (٧٦)]، وهذا لا ينافي ما ذُكر، فقد استكبر لأن أصله خانه فلو كان من الملائكة فهم **{لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}** [سورة التحريم: (٦)]، أما غيرهم ففيهم الشهوات والأوصاف التي قد تحملهم على الذنوب والمعاصي.

قال: **{فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ}** [سورة الكهف: (٥٠)]، قال ابن كثير -رحمه الله-: "**قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم -عليه السلام- أصل البشر**".

والآية مصرحة بهذا، ولربما كان الجمهور من العلماء يقولون: إن أصل إبليس من الملائكة، وإن اختلفوا في توجيه ذلك، ويستدلون على هذا بأن عامة الآيات التي وردت في ذلك الله -تبارك وتعالى- استثناه منهم: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ}** [سورة الكهف: (٥٠)]، قالوا: والأصل في الاستثناء أنه متصل، ومعنى الاستثناء المتصل أن المستثنى من جنس المستثنى منه، بخلاف المنقطع فإن المستثنى لا يكون من جنس المستثنى منه، فالذين يقولون إنه من الملائكة يقولون: الله يقول: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ}** فهو داخل معهم في الأمر بالسجود، فهو منهم، والله -عز وجل- استثناه منهم، والأصل في الاستثناء الاتصال.

وقد قال بعض أهل العلم إنه كان خازن الجنان، وقال بعضهم إنه من قبيلة من الملائكة يقال لها الجن، وأن ذلك هو المراد بقوله تعالى: **{وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا}** [سورة الصافات: (١٥٨)] وهم قالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وعلى كل حال كل هذا لا دليل عليه، وهو مبني على روايات إسرائيلية، فظاهر القرآن لا يصح العدول عنه إلى معانٍ خفية إلا بدليل يجب الرجوع إليه، ولا يوجد دليل واضح على أن إبليس من الملائكة، والله -عز وجل- أخبر عنه أنه قال: **{خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}** [سورة ص: (٧٦)]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أن الملائكة خلقوا من نور وأن الجن خلقوا من مارج من نار.

فهذا كله يدل على أن إبليس ليس من الملائكة وإنما هو من الجن، وهذا الذي تدل عليه ظواهر النصوص، والله تعالى أعلم، ودخول إبليس في الأمر **{اسْجُدُواْ لآدَمَ}** لأنه كان مع الملائكة ومن جملتهم، ومخالطا لهم، وليس المراد أنه كان منهم.

وقوله: {فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} أي: فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج، يقال فَسَقت الرُّطَبة: إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جُحْرها: إذا خرجت منه للعيث والفساد.

ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي..} الآيــة، أي: بــدلاً عني؛ ولهذا قال: {بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً}.

وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في ســورة يــس: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} [يس:٥٩] إلى قوله: {أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} [يس:٦٢].

يقول -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الــشَّيْطَانَ إِنَّــهُ لَكُــمْ عَــدُوٌّ مُّبِــينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [سورة يـــس (٦٠-٦١)].

وفي هذه السورة يقول الله -تبارك وتعالى-: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي} [سورة الكهــف: (٥٠) فــإذا قلنا بأن إبليس هو أبو الجن فذريته هم الشياطين.

في هذه الآية كأن الله -عز وجل- يقول بأن إبليس عادى ربه -تبارك وتعالى- ووقع ما وقع بسبب أنه امتنع من السجود لأبيكم آدم، فطرده الله -عز وجل- من رحمته، فكيف تتخذونه ولياً توالونه وتطيعونه وتكونــون من أتباعه وحزبه وتتركون أمر الله -تبارك وتعالى- الذي خلقكم ورزقكم، وكرمكم هذا التكريم؟ حيث أمــر إبليس أن يسجد لأبيكم آدم، والنعمة التي تكون على الآباء تلحق الأبناء كما هو معروف؛ ولهذا امتن الله -عز وجل- على بني إسرائيل كثيراً: {وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُــوءَ الْعَــذَابِ يُقَتِّلُــونَ أَبْنَــاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} [سورة الأعراف: (١٤١)] والذين نجوا هم آباؤهم.

ويقول الله –تبارك وتعالى-: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ من طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [سورة البقرة: (٥٧)]، كل ذلك وقع لآبائهم، فالمنة التي تقع للآباء تلحق الأبناء، كما أن المذمة التي تقــع علــى الآباء تلحق الأبناء إذا كانوا على طريقتهم: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّــا كُنــتُمْ تَكْتُمُــونَ} [سورة البقرة: (٧٢)]، وقوله: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [سورة البقرة: (٥٥)]، فكــل ذلك وقع لآبائهم.

فمن أعجب شيء أن يطرد إبليس من رحمة الله، بسبب الامتناع من السجود لآدم ثم بعــد ذلــك تــأتي هــذه الذرية، ويعبدونه ويطيعونه ويتخذونه ولياً من دون الله -عز وجل- {بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}.

{مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُــسِهِمْ وَمَــا كُنــتُ مُتَّخِــذَ الْمُــضِلِّينَ عَــضُدًا} [ســورة الكهف:(٥١)].

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شــيئاً، ولا أشــهدتهم خلــق السماوات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلهــا، ومــدبرها ومقدرها وَحْدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير، كما قال: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْــتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِــنْ ظَهِيرٍ وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ..}[سبا: ٢٢ - ٢٣] الآية؛ ولهذا قال: {وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا}، قال مالك: أعواناً.

قوله: {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة الكهف:(٥١)]، يقول الحافظ ابــن كثيــر –رحمــه الله-: "**هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً**". يعني: ما سبق في قولــه -تبــارك

وتعالى-: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [سورة الكهف: (٥٠)]، وكل من عبد غير الله -عز وجل-، أطاع غير الله وترك أمر الله -جل جلاله- وعبادته فهو داخل في هذا، فكل من عبد غير الله -عز وجل- سواء عبد حجراً أو صنماً أو نحو ذلك، فإن ذلك إنما هو عبادة للشيطان؛ ولهذا قال إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لأبيه: {لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ} [سورة مريم: (٤٤)]، وكان يعبد أحجاراً وأصناماً يصنعها، فهذه عبادة الشيطان؛ لأن الشيطان هو الذي أمر بذلك وزينه وحسنه في نفوسهم.

فالمقصود أن قوله -تبارك وتعالى-: {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أن الضمير يرجع إلى ما سبق.

وهذا القول هو أرجح هذه الأقوال، ودليل الرجحان هو القاعدة المعروفة، وهي: أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، فلو فسرنا بهذا المعنى يكون معنى قوله: {مَا أَشْهَدتُّهُمْ} أي: هؤلاء الذين ذكروا في قوله: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي} لو كانوا شركاء لله -عز وجل- لكانوا شاهدين خلق السماوات والأرض، وشاركوا في ذلك، ولشاركوا في الخلق، ولكن ذلك لم يحصل منه شيء، حينما خلق الله السماوات والأرض لم يكن أحد من هؤلاء قد وُجد، فما شهدوا ذلك فضلاً عن المشاركة فيه، فكيف يتخذ هؤلاء شركاء مع الله -جل جلاله؟.

أما قول من قال بأن المراد {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أن ذلك يعود إلى المشركين المستكبرين الذين طلبوا طرد الضعفاء والفقراء من المؤمنين، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا}، يقول: هؤلاء لم يكن لهم حضور لخلق السماوات والأرض ومشاركة في ذلك، فيكون لهم تدبير مع الله -عز وجل-، فكيف يطلبون هذا ويستنكفون من هؤلاء الضعفاء من أهل الإيمان ويطلبون إبعادهم؟!.

فهم جاهلون لم يشهدوا خلق الله للسماوات والأرض في الأزل فيطلعوا على المقادير -مقادير الخلق- فيعرفوا أن هؤلاء لا حظ لهم ولا نصيب، أو أنهم جاءوا لمصلحة أو لشيء يأكلونه ويطعمونه أو نحو ذلك، يقول: ما أدراهم عما قدره الله -عز وجل- لعباده وخلقه في الأزل، هذه المعاني بعيدة؛ والسبب أن هذا خلاف المتبادر.

والأمر الثاني: أنه يؤدي إلى تفريق مرجع الضمائر، إذا قلنا: إن هذه ترجع إلى المشركين وقبله قال: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ} يعني: إبليس، {وَذُرِّيَّتَهُ} إبليس، {وَهُمْ} أي: إبليس وذريته، {لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}.

قوله: {وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} [سورة الكهف: (٥١)] الآية خصت المضلين -يعني أعواناً-، والله -عز وجل- لم يتخذ أعواناً لا من المضلين ولا من الصالحين أو المصلحين، فالله -تبارك وتعالى- له الغنى المطلق عن خلقه أجمعين، ولكن يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إنه خص المضلين هنا مع أنه لم يتخذ أعواناً من أحد من الخلائق باعتبار أن ذلك فيه زيادة تحقير وامتهان لهؤلاء، أو لزيادة التوبيخ، لا سيما إذا اعتبرنا تعلقه بما قبله، {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي} ما شهدوا خلق السماوات والأرض، وما حضروا ذلك، وما شاركوا فيه.

العَضُد: فيه لغات متعددة، وهذه اللغة المشهورة لغة قريش عَضُد بفتح العين وضم الضاد وعليها هذه القراءة، والآية فيها قراءات أخرى، وبعضهم يقول: عُضُد.

والعَضُد يستعمل بمعنى: العون؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ} [سورة القصص: (٣٥)]، بمعنى: نقويك ونعينك.